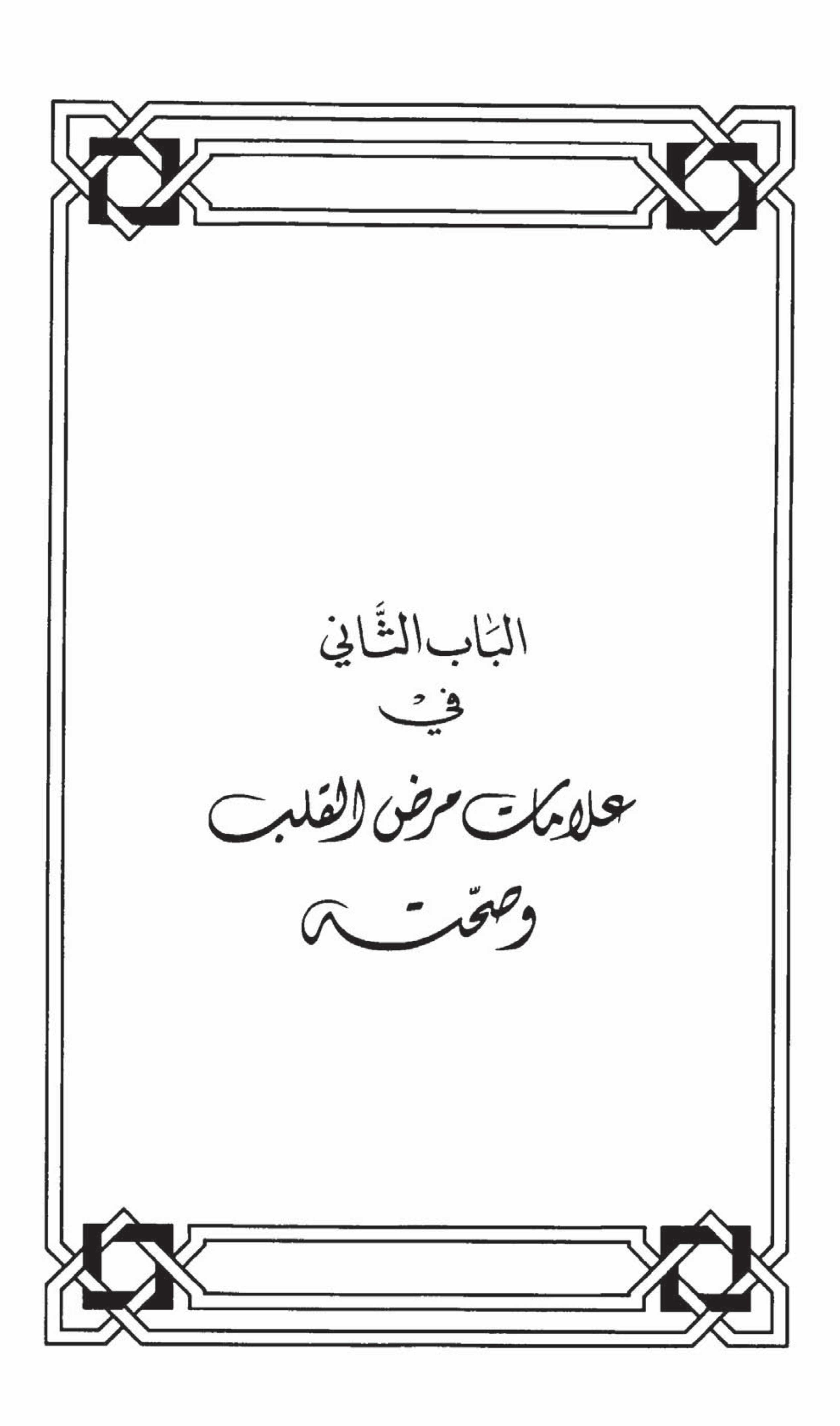


البَاب الثَّاني
في
علامات مرض القلب وصحّته

الفصل الأول
علامات مرض القلب وصحته

[تعريف مرض القلب]:

كل عضو من أعضاء البدن خُلق لفعلٍ خاص، به كماله في حصول ذلك الفعل منه.

ومرضه: أن يتعذر عليه الفعل الذي خلق له، حتى لا يصدر منه، أو يصدر مع نوع من الاضطراب.

فمرض اليد: أن يتعذر عليها البطش.

ومرض العين: أن يتعذر عليها النظر والرؤية.

ومرض اللسان: أن يتعذر عليه النطق.

ومرض البدن: أن يتعذر عليه حركته الطبيعية أو يضعف عنها.

ومرض القلب: أن يتعذر عليه ما خلق له من المعرفة بالله ومحبته والشوق إلى لقائه، والإنابة إليه، وإيثار ذلك على كل شهوة.

فلو عرف العبد كل شيء ولم يعرف ربه، فكأنه لم يعرف شيئاً، ولو نال كل حظ من حظوظ الدنيا ولَذّاتها وشهواتها ولم يظفر بمحبة الله، والشوق إليه، والأنس به؛ فكأنه لم يظفر بلذة ولا نعيم ولا قرة عين، بل إذا كان القلب خالياً من ذلك عادت تلك الحظوظ واللذات عذاباً له ولا بد، فيصير معذباً بنفس ما كان منعماً به من جهتين:

- من جهة حسرة فَوْته، وأنه حيل بينه وبينه، مع شدة تعلق روحه به.

ـ ومن جهة فَوْت ما هو خير له وأنفع وأدوم، حيث لم يحصل له.

فالمحبوب الحاصل فات، والمحبوب الأعظم لم يظفر به.

وكل من عرف الله أحبه، وأخلص العبادة له ولا بد، ولم يؤثر عليه شيئاً من المحبوبات.

فمن آثر شيئاً من المحبوبات فقلبه مريض.

كما أن المعدة إذا اعتادت أكل الخبيث وآثرته على الطيب سقط عنها شهوة الطيِّب، وتعوّضت بمحبة غيره.

[الإحساس بمرض القلب]:

وقد يمرض القلب ويشتد مرضه، ولا يعرف به صاحبه، لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها، بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته، وعلامة ذلك:

أنه لا تؤلمه جراحات القبائح.

ولا يوجعه جهله بالحق وعقائده الباطلة.

فإن القلب إذا كان فيه حياة تألم بورود القبيح عليه، وتألم بجهله بالحق بحسب حياته.

وما لجرحٍ بميّتٍ إيلامُ

[لا بد من الصبر على الدواء]:

وقد يشعر بمرضه، ولكن يشتد عليه تحمل مرارة الدواء والصبر عليها؛ فهو يؤثر بقاء ألمه على مشقة الدواء، فإن دواءه في مخالفة الهوى، وذلك أصعب شيء على النفس، وليس لها أنفع منه.

وتارة يوطن نفسه على الصبر، ثم ينفسخ عزمه، ولا يستمرّ معه

لضعف علمه وبصيرته وصبره :

كمن دخل في طريق مخوف مفضٍ إلى غاية الأمن ، وهو يعلم أنه إن صبر عليه انقضى الخوف وأعقبه الأمن ، فهو محتاج إلى قوة صبر ، وقوة يقين بما يصير إليه ، ومتى ضعف صبره ويقينه رجع من الطريق ، ولم يتحمل مشقتها ، ولا سيما إن عدم الرفيق واستوحش من الوحدة(١) ، وجعل يقول : أين ذهب الناس؟ فلي أسوة بهم .

---

(١) استطرد هنا المؤلف رحمه الله بمناسبة حديثه عن قطع الطريق المخوف ، ليتحدث عن مفهوم الجماعة ، وأنها ما وافق الحق وإن قل العدد ، فقال : فالبصير الصادق لا يستوحش من قلة الرفيق ، ولا من فقده إذا استشعر قلبه مرافقة الرفقة الأول ، الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحَسُن أولئك رفيقاً؛ فتفرّد العبد في طريق طلبه دليل على صدق الطلب .

ولقد سئل إسحاق بن راهَويه عن مسألة فأجاب . فقيل له : إن أخاك أحمد بن حنبل يقول فيها بمثل قولك . فقال : ما ظننت أن أحداً يوافقني عليها .

ولم يستوحش بعد ظهور الصواب له من عدم الموافق؛ فإن الحق إذا لاح وتبين لم يحتج إلى شاهد يشهد به . والقلب يبصر الحق كما تبصر العين الشمس . فإذا رأى الشمس لم يحتج في عمله بها واعتقاده أنها طالعة إلى من يشهد بذلك ويوافقه عليه .

وما أحسن ما قال أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامَة في كتاب (الحوادث والبدع) : حيث جاء بلزوم الجماعة ، فالمراد به لزوم الحق واتّباعه ، وإن كان المتمسك به قليلاً والمخالف له كثيراً ، لأن الحق هو الذي كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبي ﷺ وأصحابه ، ولا نظر إلى كثرة أهل الباطل بعدهم .

قال عمرو بن ميمون الأوْدِي : صحبت معاذاً باليمن ، فما فارقته حتى واريته في التراب بالشام ، ثم صحبت بعده أفقه الناس عبد الله بن مسعود ، فسمعته يقول : عليكم بالجماعة ، فإن يد الله على الجماعة .

ثم سمعته يوماً من الأيام وهو يقول : سيلي عليكم ولاة يؤخرون الصلاة عن مواقيتها ، فصلوا الصلاة لميقاتها ، فهي الفريضة ، وصلوا معهم فإنها لكم نافلة . قال قلت : يا أصحاب محمد ، ما أدري ما تحدثونا؟ قال : قلت تأمرني بالجماعة وتحضني عليها . ثم تقول : صل الصلاة وَحْدك ، وهي الفريضة ، وصل مع الجماعة ، وهي نافلة؟

قال : يا عمرو بن ميمون ، قد كنت أظنك من أفقه أهل هذه القرية ، تدري ما الجماعة؟

قلت : لا . =

وهذه حال أكثر الخلق، وهي التي أهلكتهم.

[علامات أمراض القلب]:

والمقصود: أن من علامات أمراض القلوب:

عدولها عن الأغذية النافعة الموافقة لها إلى الأغذية الضارة.

وعدولها عن دوائها النافع إلى دائها الضار.

فهنا أربعة أمور:

غذاء نافع.

= قال: إن جمهور الجماعة: الذين فارقوا الجماعة. الجماعة ما وافق الحق، وإن كنت وحدك.

وفي طريق أخرى فضرب على فخذي وقال: ويحك، إن جمهور الناس فارقوا الجماعة. وإن الجماعة ما وافق طاعة الله عزَّ وجلّ.

قال نُعَيم بن حماد: يعني إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد، وإن كنت وحدك. فإنك أنت الجماعة حينئذ، ذكره البيهقي وغيره.

وقال أبو شامة عن مبارك عن الحسن البصري قال: السنة، والذي لا الله إلا هو، بين الغالي والجافي، فاصبروا عليها رحمكم الله؛ فإن أهل السنة كانوا أقلَّ الناس فيما بقي: الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم، ولا مع أهل البدع في بدعهم، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم، فكذلك إن شاء الله فكونوا.

وكان محمد بن أسلم الطُّوسي، الإمام المتفق على إمامته، مع رتبته؛ أتبع الناس للسنة في زمانه؛ حتى قال: ما بلغني سُنة عن رسول الله ﷺ إلا علمت بها، ولقد حرصت على أن أطوف بالبيت راكباً؛ فما مُكِّنتُ من ذلك.

فسُئل بعض أهل العلم في زمانه عن السَّواد الأعظم الذين جاء فيهم الحديث: «إذا اختلف الناس فعليكم بالسواد الأعظم» من السواد الأعظم؟ فقال: محمد بن أسلم الطوسي هو السواد الأعظم.

وصدق والله، فإن العصر إذا كان فيه عارف بالسنّة داع إليها فهو الحجة، وهو الإجماع، وهو السواد الأعظم، وهو سبيل المؤمنين التي من فارقها واتبع سواها ولاّه الله ما تولّى، وأصلاه جهنم، وساءت مصيراً.

ودواء شاف.

وغذاء ضار.

ودواء مهلك.

[علامات صحة القلب]:

والقلب الصحيح: يؤثر النافع الشافي على الضار المؤذي، والقلب المريض بضد ذلك.

وأنفع الأغذية غذاء الإيمان.

وأنفع الأدوية دواء القرآن.

وكل منهما فيه الغذاء والدواء.

ومن علامات صحته أيضاً: أن يرتحل عن الدنيا حتى ينزل بالآخرة، ويحل فيها، حتى يبقى كأنه من أهلها وأبنائها، وقد جاء هذه الدار غريباً يأخذ منها حاجته، ويعود إلى وطنه، كما قال النبي ﷺ لعبد الله بن عمر: (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وعُدَّ نفسك من أهل القبور)[1].

فحيِّ على جنات عَدْنٍ فإنها ... منازلك الأولى وفيها المُخَيّمُ
ولكننا سَبْي العدو، فهل ترى ... نعود إلى أوطاننا ونسلم؟

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إن الدنيا قد ترحلت مدبرة، وإن الآخرة قد ترحلت مقبلة، ولكل منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٤١٦) دون الفقرة الأخيرة، وهي عند الترمذي (٢٣٣٣) وغيره.

كلما صح القلب من مرضه ترحل إلى الآخرة وقرب منها، حتى يصير من أهلها، وكلما مرض القلب واعتل آثر الدنيا واستوطنها، حتى يصير من أهلها.

ومن علامات صحة القلب: أنه لا يزال يضرب على صاحبه حتى ينيب إلى الله تعالى ويخبت إليه، ويتعلق به تعلق المحب المضطر إلى محبوبه، الذي لا حياة له، ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور إلا برضاه وقربه والأنس به، فبه يطمئن، وإليه يسكن، وإليه يأوي، وبه يفرح، وعليه يتوكل، وبه يثق، وإياه يرجو، وله يخاف.

فذكره قوته، وغذاؤه ومحبته، والشوق إليه حياته ونعيمه ولذته وسروره، والالتفات إلى غيره والتعلق بسواه داؤه، والرجوع إليه دواؤه.

فإذا حصل له ربه سكن إليه واطمأن به، وزال ذلك الاضطراب والقلق، وانسدت تلك الفاقة.

فإن في القلب فاقة لا يسدها شيء سوى الله أبداً.

وفيه شعث لا يلمه غير الإقبال عليه.

وفيه مرض لا يشفيه غير الإخلاص له، وعبادته وحده.

فهو دائماً يضرب على صاحبه حتى يسكن ويطمئن إلى إلٰهه ومعبوده، فحينئذٍ يباشر روح الحياة، ويذوق طعمها، ويصير له حياة أخرى غير حياة الغافلين المعرضين عن هذا الأمر الذي له خُلِق الخلق، ولأجله خُلِقت الجنة والنار، وله أُرسلت الرسل ونزلت الكتب، ولو لم يكن جزاء إلا نفس وجوده لكفى به جزاء وكفى بفوته حسرة وعقوبة، كما قيل:

وَمَنْ صَدَّ عَنَّا حَظُّهُ الْبُعْدُ وَالْقِلَىٰ   وَمَـنْ فُتُّـهُ يَكْفِيـهِ أَنِّـي أَفُـوتُـهُ

قال بعض العارفين: مساكين أهل الدنيا، خرجوا من الدنيا وما ذاقوا

أطيب ما فيها؛ قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله والأنس به والشوق إلى لقائه، والتنعُّم بذكره وطاعته.

وقال آخر: إنه ليمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب.

وقال آخر: والله ما طابت الدنيا إلا بمحبته وطاعته، ولا الجنة إلا برؤيته ومشاهدته.

وقال أبو الحسين الوراق: حياة القلب في ذكر الحي الذي لا يموت، والعيش الهني: الحياة مع الله تعالى لا غير.

ولهذا كان الفوت عند العارفين بالله أشد عليهم من الموت؛ لأن الفوت انقطاع عن الحق، والموت انقطاع عن الخلق، فكم بين الانقطاعين؟

وقال آخر: من قرت عينه بالله تعالى قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تقطع قلبه على الدنيا حسرات.

وقال يحيى بن معاذ: من سر بخدمة الله سرت الأشياء كلها بخدمته، ومن قرت عينه بالله قرت عيون كل أحد بالنظر إليه.

ومن علامات صحة القلب: أن لا يفتر عن ذكر ربه، ولا يسأم من خدمته، ولا يأنس بغيره؛ إلا بمن يدله عليه، ويذكرهُ به، ويذاكره بهذا الأمر.

ومن علامات صحته: أنه إذا فاته ورده وجد لفواته ألماً أعظم من تألم الحريص بفوات ماله وفقده.

ومن علامات صحته: أنه يشتاق إلى الخدمة، كما يشتاق الجائع إلى الطعام والشراب.

ومن علامات صحته: أنه إذا دخل في الصلاة ذهب عنه همه وغمه

بالدنيا، واشتد عليه خروجه منها، ووجد فيها راحته ونعيمه، وقرت عينه وسرور قلبه.

ومن علامات صحته: أن يكون همه واحداً، وأن يكون في الله.

ومن علامات صحته: أن يكون أشح بوقته أن يذهب ضائعاً من أشد الناس شحاً بما له ومنعاً.

ومنها: أن يكون اهتمامه بتصحيح العمل أعظم منه بالعمل، فيحرص على الإخلاص فيه والنصيحة والمتابعة والإحسان، ويشهد مع ذلك مِنَّة الله فيه وتقصيره في حق الله.

فهذه ست مشاهد لا يشهدها إلا القلب الحي السليم[1].

خلاصة القول في القلب الصحيح:

وبالجملة فالقلب الصحيح: هو الذي هَمُّه كله في الله، وحبه كله له، وقصده له، وبدنه له، وأعماله له، ونومه له، ويقظته له، وحديثه والحديث عنه أشهَى إليه من كل حديث. وأفكاره تحوم على مراضيه ومحابّه.

والخلوة به آثر عنده من الخلطة إلا حيث تكون الخلطة أحب إليه وأرضى له، قُرَّة عينه به، وطمأنينته وسكونه إليه، فهو كلما وجد من نفسه التفاتاً إلى غيره تلا عليها: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [الفجر: ٢٧ـ٢٨].

فهو يردد عليها الخطاب بذلك ليسمعه من ربه يوم لقائه فينصبغ القلب بين يدي إلـٰهه ومعبوده الحق بصبغة العبودية، فتصير العبودية صفته، ذوقاً لا تكلفاً، فيأتي بها تودُّداً وتحبباً وتقرباً، كما يأتي المحب المتيم في محبة محبوبه بخدمته وقضاء أشغاله.

---

(١) ما ذكره المصنف أكثر من ذلك.

فكلما عرض له أمر من ربه أو نهي أحسَّ من قلبه ناطقاً ينطق: لبَّيْك وَسَعْدَيك إني سامع مطيع ممتثل، ولك عليّ المِنَّة في ذلك، والحمد فيه عائد إليك.

وإذا أصابه قَدَر وجد من قلبه ناطقاً يقول: أنا عبدك ومسكينك وفقيرك، وأنا عبدك الفقير العاجز الضعيف المسكين، وأنت ربي العزيز الرحيم؛ لا صبر لي إن لن تصبرني، ولا قوة لي إن لم تحملني وتُقوِّني؛ لا ملجأ لي منك إلا إليك، ولا مستعان لي إلا بك، ولا انصراف لي عن بابك، ولا مذهب لي عنك.

فينطرح بمجموعه بين يديه، ويعتمد بكليته عليه، فإن أصابه بما يكره قال: رحمة أهْديتْ إليَّ، ودواء نافع من طبيب مشفق، وإن صرف عنه ما يحب قال: شَرّاً صرف عني.

وكَمْ رمتُ أمْراً خِرْتَ لي في انْصِرَافِه وَما زلتَ بي مِنِّي أَبرَّ وَأَرْحَما

فكل ما مَسَّه به من السَّرَّاء والضرَّاء اهتدى بها طريقاً إليه، وانفتح له منه باب يدخل منه عليه، كما قيل:

ما مسَّني قَدَر بكُرْهٍ أو رضىً إلا اهتديتُ به إليك طريقاً
أمْضِ القضاء على الرضا مني به إني وجدتك في البلاء رفيقاً

فلله هاتيك القلوب وما انطوت عليه من الضمائر، وماذا أودعته من الكنوز والذخائر، ولله طيب أسرارها ولا سيما يوم تُبْلى السرائر.

سيبدو لها طيب ونور وبهجة وحسن ثناء يوم تبلى السرائر

تالله، لقد رفع لها علم عظيم فشمرت إليه، واستبان لها صراط مستقيم فاستقامت عليه، ودعاها ما دون مطلوبها الأعلى فلم تستجب إليه، واختارته على ما سواه وآثرت ما لديه.

* * *

الفصل الثاني

مفسدات القلب وأسباب أمراضه[1]

تمهيد:

مفسدات القلب خمسة وهي:

- كثرة الخلطة.

- التمني.

- التعلق بغير الله تعالى.

- الشبع.

- كثر النوم.

فهذه الخمسة من أكبر مفسدات القلب، فنذكر آثارها التي اشتركت فيها، وما تميز به كل واحد منها.

اعلم أن القلب يسير إلى الله عز وجل، والدار الآخرة، ويكشف عن طريق الحق ونهجه، وآفات النفس والعمل، وقطاع الطريق، بنوره وحياته وقوته، وصحته وعزمه، وسلامة سمعه وبصره، وغيبة الشواغل والقواطع عنه.

وهذه الخمسة تطفئ نوره، وتعور عين بصيرته، وتثقل سمعه، إن لم

---

(١) جاء هذا الموضوع في كتاب مدارج السالكين: ١/ ٤٥٣ ـ ٤٦٠.

تَصُمه وتُبكمَه وتضعف قواه كلها. وتوهن صحته وتُفَتِّر عزيمته، وتوقف همته، وتنكسه إلى ورائـه. ومن لا شـعور له بهذا فميت القلب. وما لجرح بميت إيلام. فهي عائقة له عن نيل كماله. قاطعة له عن الوصول إلى ما خلق له. وجعل نعيمه وسعادته وابتهاجه ولذته في الوصول إليه.

فإنه لانعيم له ولالذة، ولا ابتهاج، ولاكمال، إلا بمعرفة الله ومحبته، والطمأنينـة بذكره، والفرح والابتهاج بقربـه، والشـوق إلى لقائـه. فهذه جنته العاجلة. كما أنه لانعيم له في الآخرة، ولافوز إلا بجواره في دار النعيم في الجنة الآجلة. فله جنتان. لا يدخل الثانية منهما إن لم يدخل الأولى.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

وقال بعض العارفين: إنه لتمر بالقلب أوقات. أقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا. إنهم لفي عيش طيب.

وقال بعض المحبين: مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها، قالوا: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله، والأنس به، والشوق إلى لقائه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه ـ و نحو هذا من الكلام.

وكل من له قلب حي يشهد هذا ويعرفه ذوقاً.

وهذه الأشياء الخمسة: قاطعة عن هذا، حائلة بين القلب وبينه، عائقة له عن سيره، ومحدثة له أمراضاً وعللاً، إن لم يتداركها المريض خيف عليه منها.

المفسد الأول ـ كثرة الخلطة:

فأما ما تؤثره كثرة الخلطة: فامتلاء القلب من دخان أنفاس بني آدم حتى يسودَ، ويوجب له تشـتتاً وتفرقاً، وهماً وغماً، وضعفاً، وحملاً لما

يعجز عن حمله من مؤنة قرناء السوء، وإضاعة مصالحه، والاشتغال عنها بهم وبأمورهم، وتَقَسُّم فكره في أودية مطالبهم وإرادتهم. فماذا يبقى منه لله والدار الآخرة؟.

هذا، وكم جلبت خلطة الناس من نقمة، ودفعت من نعمة؟ وأنزلت من محنة، وعطلت من منحة، وأحلت من رزية، ووقعت في بلية؟ وهل آفة الناس إلا الناس؟ وهل كان على أبي طالب ـ عند الوفاة ـ أضر من قرناء السوء؟ لم يزالوا به حتى حالوا بينه وبين كلمة واحدة توجب له سعادة الأبد.

وهذه الخلطة التي تكون على نوع مودة في الدنيا، وقضاء وطر بعضهم من بعض، تنقلب إذا حَقَّت الحقائق عداوة، ويعض المخلط عليها يديه ندماً.

كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ﴾ [الفرقان: ٢٧ـ٢٩].

وقال تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وقال خليله إبراهيم لقومه: ﴿ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وهذا شأن كل مشتركين في غرض. يتوادون ما داموا متساعدين على حصوله، فإذا انقطع ذلك الغرض، أعقب ندامة وحزناً وألماً. وانقلبت تلك المودة بغضاً ولعنة، وذماً من بعضهم لبعض، لما انقلب ذلك الغرض حزناً وعذاباً، كما يشاهد في هذه الدار من أحوال المشتركين في خزيه، إذا أُخذوا وعوقبوا. فكل متساعدين على باطل، متوادِّين عليه: لا بد أن تنقلب مودتهما بغضاً وعداوة.

والضابط النافع في أمر الخلطة: أن يخالط الناس في الخير ـ كالجمعة والجماعة، والأعياد والحج، وتعلم العلم، والجهاد، والنصيحة ـ ويعتزلهم في الشر، وفضول المباحات. فإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في الشر، ولم يمكنه اعتزالهم: فالحذَر الحذَر أن يوافقهم. وليصبر على أذاهم، فإنهم لا بد أن يؤذوه إن لم يكن له قوة ولا ناصر. ولكن أذىً يعقبه عز ومحبة له وتعظيم، وثناء عليه منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين. وموافقتُهم يعقبها ذُلٌّ وبُغْضٌ له، ومقت، وذم منهم ومن المؤمنين، ومن رب العالمين.

فالصبر على أذاهم خير وأحسن عاقبة، وأحمد مآلاً، وإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في فضول المباحات. فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس طاعة لله، إن أمكنه، ويشجع نفسه ويقوي قلبه، ولا يلتفت إلى الوارد الشيطاني القاطع له عن ذلك، بأن هذا رياء ومحبة لإظهار علمك وحالك، ونحو ذلك، فليحاربه، وليستعن بالله، ويؤثر فيهم من الخير ما أمكنه.

فإن أعجزته المقادير عن ذلك، فَلْيَسُلّ قلبه من بينهم كسلٍّ الشعرة من العجين، وليكن فيهم حاضراً غائباً، قريباً بعيداً، نائماً يقظاناً. ينظر إليهم ولا يبصرهم، ويسمع كلامهم ولا يعيه، لأنه قد أخذ قلبه من بينهم، ورقى به إلى الملأ الأعلى، يسبح حول العرش مع الأرواح العلوية الزكية. وما أصعب هذا وأشقه على النفوس، وإنه ليسير على من يسره الله عليه. فبين العبد وبينه أن يَصْدُق الله تبارك وتعالى، ويديم اللجأ إليه، ويلقي نفسه على بابه طريحاً ذليلاً، ولا يعين على هذا إلا محبة صادقة، والذكر الدائم بالقلب واللسان، وتجنب المفسدات الأربع الباقية الآتي ذكرها. ولا ينال هذا إلا بعدة صالحة ومادة قوة من الله عز وجل، وعزيمة صادقة، وفراغ من التعلق بغير الله تعالى. والله تعالى أعلم.

وإنما ينبغي للعبـد أن يأخذ من المخالطـة. بمقدار الحاجة[١]. ويجعل الناس فيها أربعة أقسـام، متى خلط أحد الأقسام بالآخر ولم يميز بينهما دخل عليه الشر.

أحدها: مَنْ مخالطته كالغذاء لا يستغنى عنه في اليوم والليلة، فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة، ثم إذا احتاج إليه خالطه هكذا على الدوام، وهذا الضرب أعز من الكبريت الأحمر، وهم العلماء بالله وأمره ومكايد عدوه وأمراض القلوب وأدويتها، الناصحون لله ولكتابه ولرسوله ولخلقه فهذا الضرب في مخالطتهم الربح كله.

القسـم الثاني: مَنْ مخالطتـه كالدواء يحتاج إليه عند المرض، فما دمت صحيحاً فلا حاجة لك في خلطته، وهم من لا يستغنى عن مخالطتهم في مصلحـة المعاش وقيـام ما أنت محتـاج إليه من أنـواع المعامـلات والمشاركات والاستشارة والعلاج للأدواء ونحوها، فإذا قضيت حاجتك من مخالطة هذا الضرب بقيت مخالطتهم من القسم الثالث.

القسم الثالث: وهم من مخالطته كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه وقوته وضعفه، فمنهم من مخالطته كالداء العضال والمرض المزمن، وهو من لا تربح عليه في دين ولا دنيا، ومع ذلك فلا بد من أن تخسر عليه الدين والدنيا أو أحدهما، فهذا إذا تمكنت مخالطته واتصلت فهي مرض الموت المخوف.

ومنهم من مخالطتـه كوجع الضرس يشـتد ضرباً فإذا فارقك سـكن الألم.

ومنهم من مخالطته حمى الروح وهو الثقيل البغيض العقل، الذي

(١) من هنا وحتى آخر هذه الفقرة من كتاب (بدائع الفوائد): ٢/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥.

لايحسن أن يتكلم فيفيدك، ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك، ولا يعرف نفسه فيضعها في منزلتها، بل إن تكلم فكلامه كالعصي تنزل على قلوب السامعين، مع إعجابه بكلامه وفرحه به، فهو يحدث من فيه كلما تحدث، ويظن أنه مسك يطيب به المجلس، وإن سكت فأثقل من نصف الرحا العظيمة، التي لا يطاق حملها ولا جرها على الأرض.

ويذكر عن الشافعي رحمه الله أنه قال: ما جلس إلى جانبي ثقيل إلا وجدت الجانب الذي هو فيه أنزل من الجانب الآخر.

ورأيت يوماً عند شيخنا قدس الله روحه رجلاً من هذا الضرب، والشيخ يحمله وقد ضعفت القوى عن حمله، فالتفت إليّ وقال: مجالسة الثقيل حمى الربع، ثم قال: لكن قد أدمنت أرواحنا على الحمى فصارت لها عادة أو كما قال.

وبالجملة فمخالطة كل مخالف حمى للروح فعرضية ولازمة. ومن نكد الدنيا على العبد أن يبتلى بواحد من هذا الضرب، وليس له بد من معاشرته ومخالطته، فليعاشره بالمعروف حتى يجعل الله له فرجاً ومخرجاً.

القسم الرابع: مَنْ مخالطته الهلك كله ومخالطته بمنزلة أكل السم، فإن اتفق لآكله ترياق وإلا فأحسن الله فيه العزاء، وما أكثر هذا الضرب في الناس لا كثَّرهم الله، وهم أهل البدع والضلالة الصادون عن سنة رسول الله ﷺ، الداعون إلى خلافها، الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً، فيجعلون البدعة سنة والسنة بدعة والمعروف منكراً والمنكر معروفاً.

إن جردت التوحيد بينهم قالوا: تنقصت جناب الأولياء والصالحين.

وإن جردت المتابعة لرسول الله ﷺ قالوا: أهدرت الأئمة المتبوعين.

وإن وصفت الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير غلوّ ولا تقصير، قالوا: أنت من المشبهين.

وإن أمرت بما أمر الله به ورسوله من المعروف، ونهيت عما نهى الله عنه ورسوله من المنكر، قالوا: أنت من المفتنين.

وإن اتبعت السنة، وتركت ما خالفها قالوا: أنت من أهل البدع المضلين.

وإن انقطعت إلى الله تعالى، وخليت بينهم وبين جيفة الدنيا قالوا: أنت من الملبسين.

وإن تركت ما أنت عليه، واتبعت أهواءهم، فأنت عند الله من الخاسرين وعندهم من المنافقين.

فالحزم كل الحزم التماس مرضات الله تعالى ورسوله بإغضابهم، وأن لا تشتغل بإعتابهم ولا باستعتابهم، ولا تبالي بذمهم ولا بغضهم، فإنه عين كمالك كما قال:

وإذا أتتكَ مذمَّتِي مِنْ نَاقِصٍ ... فهيَ الشَّهادةُ لي بأنِّي فاضِلُ

المفسد الثاني - التمني:

والمفسد الثاني من مفسدات القلب ركوبُه بحرَ التمنّي، وهو بحر لا ساحل له. وهو البحر الذي يركبه مفاليس العالم، كما قيل: إن المنَى رأسُ أموالِ المفاليس. وبضاعة ركابه مواعيد الشيطان، وخيالات أهل المحال والبهتان. فلا تزال أمواج الأماني الكاذبة، والخيالات الباطلة، تتلاعب براكبه كما تتلاعب الكلاب بالجيفة، وهي بضاعة كل نفس مهينة خسيسة سفلية. ليست لها همة تنال بها الحقائق الخارجية. بل اعتاضت عنها بالأماني الذهنية. وكلٌّ بحسب حاله: من متمن للقدرة والسلطان، وللضرب في الأرض والتطواف في البلدان، أو للأموال والأثمان، أو للنسوان والمردان، فيمثل المتمني صورة مطلوبه في نفسه وقد فاز بوصولها، وَالْتَذَّ بالظفر بها. فبينا هو على هذه الحال، إذ استيقظ فإذا يده والحصير.

وصاحب الهمة العلية أمانيه حائمة حول العلم والإيمان. والعمل الذي يقربه إلى الله. ويدنيه من جواره.

فأماني هذا إيمان ونور وحكمة. وأماني أولئك خدع وغرور.

وقد مدح النبي ﷺ متمني الخير. وربما جعل أجره في بعض الأشياء كأجر فاعله، كالقائل: لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان الذي يتقي في ماله ربه. ويصل فيه رحمه، ويخرج منه حقه. وقال: (هما في الأجر سواء)، وتمنّى ﷺ في حجة الوداع: أنه لو كان تمتع وحَلَّ ولم يُسِقِ الهدي، وكان قد قَرَن. فأعطاه الله ثواب القران بفعله، وثواب التمتع الذي تمناه بأمنيته، فجمع له بين الأجرين.

المفسد الثالث ـ التعلق بغير الله تعالى:

والمفسد الثالث من مفسدات القلب التعلق بغير الله تبارك وتعالى. وهذا أعظم مفسداته على الإطلاق.

فليس عليه أضر من ذلك. ولا أقطع له عن مصالحه وسعادته منه، فإنه إذا تعلق بغير الله وكله الله إلى ما تعلق به. وخذله من جهة ما تعلق به. وفاته تحصيل مقصوده من الله عز وجل، بتعلقه بغيره، والتفاته إلى سواه. فلا على نصيبه من الله حصل. ولا إلى ما أمله ممن تعلق به وصل.

قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١ ـ ٨٢]. وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ۝٧٤ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٌ مُّحۡضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤ـ٧٥].

فأعظم الناس خذلاناً من تعلق بغير الله. فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه، أعظم مما حصل له ممن تعلق به. وهو معرَّض للزوال

والفوات. ومثل المتعلق بغير الله: كمثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت، أوهن البيوت.

وبالجملة: فأساس الشرك وقاعدته التي بني عليها: التعلق بغير الله. ولصاحبه الذم والخذلان، كما قال تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾ [الإسراء: ٢٢] مذموماً لا حامد لك. مخذولاً لا ناصر لك. إذ قد يكون بعض الناس مقهوراً محموداً كالذي قهر بباطل. وقد يكون مذموماً منصوراً. كالذي قهر وتسلط عليه بباطل. وقد يكون محموداً منصوراً كالذي تمكن وملك بحق. والمشرك المتعلق بغير الله قسمه أردأ الأقسام الأربعة، لا محمود ولا منصور.

المفسد الرابع ـ الشبع:

والمفسد له من ذلك نوعان:

أحدهما ما يفسده لعينه وذاته كالمحرمات. وهي نوعان:

محرمات لحق الله، كالميتة والدم، ولحم الخنزير، وذي الناب من السباع والمخلب من الطير.

ومحرمات لحق العباد. كالمسروق والمغصوب والمنهوب. وما أخذ بغير رضى صاحبه، إما قهراً وإما حياء وتذمماً.

والثاني: ما يفسده بقدره: وتعدى حده، كالإسراف في الحلال، والشبع المفرط، فإنه يثقله عن الطاعات. ويشغله بمزاولة مؤنة البطنة ومحاولتها، حتى يظفر بها. فإذا ظفر بها شغله بمزاولة تصرفها ووقاية ضررها، والتأذي بثقلها، وقوى عليه مواد الشهوة، وطرق مجاري الشيطان ووسعها، فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم. فالصوم يضيق مجاريه ويسد عليه طرقه، والشبع يطرقها ويوسعها. ومن أكل كثيراً شرب كثيراً. فنام كثيراً. فخسر كثيراً. وفي الحديث المشهور (ما ملأ آدمي وعاءً شراً من بطنه.

بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه. فإن كان لا بد فاعلاً فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه)[1].

ويحكى أن إبليس ـ لعنه الله ـ عرض ليحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام، فقال له يحيى: هل نلت مني شيئاً قط؟ قال: لا. إلا أنه قُدِّم إليك الطعام ليلة فشَهَّيته إليك حتى شبعت منه. فنمت عن وردك. فقال يحيى: لله عليَّ أن لا أشبع من طعام أبداً. فقال إبليس: وأنا، لله عليّ أن لا أنصح آدمياً أبداً.

المفسد الخامس ـ كثرة النوم:

فإنه يميت القلب، ويثقل البدن، ويضيع الوقت، ويورث كثرة الغفلة والكسل. ومنه المكروه جداً. ومنه الضار غير النافع للبدن.

وأنفع النوم: ما كان عند شدة الحاجة إليه. ونوم أول الليل أحمد وأنفع من آخره. ونوم وسط النهار أنفع من طرفيه. وكلما قرب النوم من الطرفين قل نفعه. وكثر ضرره. ولا سيما نوم العصر. والنوم أول النهار إلا لسهران.

ومن المكروه عندهم: النوم بين صلاة الصبح وطلوع الشمس. فإنه وقت غنيمة. وللسير ذلك الوقت عند السالكين مزية عظيمة. حتى لو ساروا طول ليلهم لم يسمحوا بالقعود عن السير ذلك الوقت حتى تطلع الشمس. فإنه أول النهار ومفتاحه. ووقت نزول الأرزاق، وحصول القسم، وحلول البركة. ومنه ينشأ النهار. وينسحب حكم جميعه على حكم تلك الحصة. فينبغي أن يكون نومها كنوم المضطر.

وبالجملة فأعدل النوم وأنفعه: نوم نصف الليل الأول، وسدسه

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٨٠)؛ وابن ماجه (٣٣٤٩).

الأخير. وهو مقدار ثمان ساعات. وهذا أعدل النوم عند الأطباء. وما زاد عليه أو نقص منه أثر عندهم في الطبيعة انحرافاً بحسبه.

ومن النوم الذي لاينفع أيضاً: النوم أول الليل، عقيب غروب الشمس، حتى تذهب فحمة العشاء. وكان رسول الله ﷺ يكرهه. فهو مكروه شرعاً وطبعاً.

وكما أن كثرة النوم موروثة لهذه الآفات، فمدافعته وهجره، مورث لآفات أخرى عظام: من سوء المزاج ويبسه، وانحراف النفس، وجفاف الرطوبات المعينة على الفهم والعمل. ويورث أمراضاً متلفة لاينتفع صاحبها بقلبه ولا بدنه معها. وما قام الوجود إلا بالعدل. فمن اعتصم به فقد أخذ بحظه من مجامع الخير. وبالله المستعان.

المفسد السادس ـ فضول النظر(١):

إن فضول النظر يدعو إلى الاستحسان، ووقوع صورة المنظور إليه في القلب، والاشتغال به والفكرة في الظفر به، فمبدأ الفتنة من فضول النظر، كما في (المسند) عن النبي ﷺ أنه قال: (النظرة سهم مسموم من سهام إبليس فمن غض بصره لله أورثه الله حلاوة يجدها في قلبه إلى يوم يلقاه) أو كما قال ﷺ.

فالحوادث العظام إنما كلها من فضول النظر فكم نظرة أعقبت حسرات لا حسرة كما قال الشاعر:

---

(١) قال المصنف في الفوائد، ص١٨٢: قسوة القلب من أربعة أشياء إذا جاوزت قدر الحاجة: الأكل، والنوم، والكلام، والمخالطة؛ وقال في بدائع الفوائد: ٢/ ٢٧١ في صدد التحرز من الشيطان: «إمساك فضول النظر والكلام والطعام ومخالطة الناس».
فأضاف في هذين النصين: فضول النظر، وفضول الكلام، فأضفتهما إلى الموضوع من كتاب (بدائع الفوائد): ٢/ ٢٧١ ـ ٢٧٣.

كلُّ الحوادث مبداها مِنَ النَّظَرِ وَمُعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ
كَمْ نَظْرَةٍ فَتكَتْ فِي قَلْبِ صَاحِبِهَا فَتْكَ السِّهَامِ بِلا قَوْسٍ وَلا وَتَرِ

وقال الآخر:

وَكنتَ مَتَىٰ أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِداً لِقَلْبِكَ يَوْماً أَتْعَبَتْكَ الْمَنَاظِرُ
رَأَيْتَ الَّذِي لا كُلُّهُ أَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ وَلا عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرُ

والمقصود: أن فضول النظر أصل البلاء.

المفسد السابع ـ فضول الكلام:

وأما فضول الكلام فإنها تفتح للعبد أبواباً من الشر كلها مداخل للشيطان فإمساك فضول الكلام يسد عنه تلك الأبواب كلها، وكم من حرب جرتها كلمة واحدة، وقد قال النبي ﷺ لمعاذ: (وهل يَكبُّ الناسَ على مناخرِهم في النَّار إلا حَصائدُ ألسِنَتِهم)[1]. وفي الترمذي أن رجلاً من الأنصار توفي فقال بعض الصحابة طوبى له فقال النبي ﷺ: (فما يدريك فلعله تكلم بما لا يعنيه أو بخل بمالاً ينقصه)[2].

وأكثر المعاصي إنما تولدها من فضول الكلام والنظر، وهما أوسع مداخل الشيطان، فإن جارحتيهما لا يملان ولا يسئمان، بخلاف شهوة البطن فإنه إذا امتلأ لم يبق فيه إرادة للطعام، وأما العين واللسان فلو تركا لم يفترا من النظر والكلام، فجنايتهما متسعة الأطراف كثيرة الشعب عظيمة الآفات، وكان السلف يحذرون من فضول النظر كما يحذرون من فضول الكلام، وكانوا يقولون: ما شيء أحوج إلى طول السجن من اللسان.

* * *

---

(١) رواه الترمذي (٢٦١٦)؛ وابن ماجه (٣٩٧٣).
(٢) رواه الترمذي (٢٣١٦)؛ وضعفه الألباني.